إيجابية الموت في القرآن والسنة
رؤية فكرية جديدة

د. طاهر مصطفى نصّار

أستاذ مشارك في العقيدة بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الحي القيوم الذي لا ينام ولا يموت ، والجن والإنس يموتون ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين .. وبعد:

الموت حقيقة قد اتفق عليها جميع البشر ، وأقر بها المؤمن بربوبية الله والمنكر لوجوده (جل في علاه) ؛ حتى استقر في فطرة كل إنسان اليقين بزوال حياته ، ووفاة جميع الأحياء على وجه الأرض ، واستشعر ضعفه وعجزه عن دفع الموت عن نفسه – فضلاً عن غيره – ﴿ **قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

ومن هنا شغل الموت أفئدة الناس وعقولهم ، وتناولته ألسنتهم وأقلامهم ، واتخذوا في ذلك طرائق قددًا ، وأساليب شتى ؛ عقدية إيمانية، وفكرية فلسفية ، ووعظية خطابية ، وشعرية أدبية .. ولكنَّ الملاحظ في كتابات الفلاسفة والمفكرين ، ووعظ الزهاد والأدباء والمتنسكين ؛ الحديث عن الموت على أنه إما أمر عدمي أو أمر مرحلي :

- فنرى الملحدين المنكرين وجود الخالق ، والمشركين المنكرين البعث والحساب ؛ يعتبرون الموت عدمًا محضًا ، وفناءً صرفًا ، ومنهم من ينظر إليه نظرة تشاؤمية ، أو يصوره على أنه يمثل مع الحياة مسرحية هزلية عبثية[١].
- ونرى بعض المؤمنين بالله واليوم الآخر من المفكرين يعتبرونه عدمًا جزئيًا ؛ بمعنى أنه فناء للحياة الدنيا فقط ، وبعد الموت تبدأ حياة جديدة تختلف في ماهيتها ونواميسها عن الحياة الأولى[٢].
- ونرى جمهور المؤمنين بالله واليوم الآخر من العلماء وعامة المسلمين يعتبرونه أمرًا وجوديًا ؛ ولكنه بمثابة منزلة مرحلية كمقدمة للآخرة ؛

تقتصر وظيفته على إنهاء الدنيا والتذكير بما يعقبها من برزخ وحشر وحساب وجزاء وجنة أو نار[٣].

بيد أن المتأمل المتدبر في آيات القرآن العظيم وأحاديث الرسول الكريم ﷺ يخرج برؤية فكرية جديدة ؛ إذ يجد الموت أمرًا وجوديًا لا عدميًا ، وإيجابيًا لا سلبيًا ، ومخلوقًا من مخلوقات الله تعالى له وظيفة عظيمة ، وله تأثير كبير في مصير الإنسان وحياتيه الأولى والآخرة.

بل يرى هذا المخلوق العجيب قد تنوعت وتعددت معانيه واستعمالاته ومرادفاته في القرآن الكريم ، وقسمته بعض الآيات إلى قسمين يختلفان في الماهية والخصائص ، ويكتنفان حياة الإنسان الأولى ، ويمثلان مرحلتين أساسيتين فيها ، ويدلان دلالة كبيرة على قدرة الله الباهرة القاهرة، والتنويع والتقسيم من خصائص الأمور الوجودية الإيجابية ، وليس من خصائص الأوصاف العدمية السلبية.

ويزداد المرء عجبًا وانبهارًا عندما يستكشف من مكنون الوحي وذخائر القرآن والسنة آيات وأحاديث تتحدث عن الموت على أنه دواء لأدواء النفس ، وعلاج لأمراض المجتمع ، وحل لجميع المشكلات والأزمات ، ووسيلة للإصلاح في الدنيا ، وحافز على الاستعداد للآخرة.

وبهذه الرؤية الجديدة لا نرى في الموت لغزًا يحتاج إلى تفسير[٤] ؛ بل نرى فيه كنزًا يمكن الانتفاع به واستثماره في تقويم الفكر ، وتحسين الأخلاق ، وترشيد السلوك ، وإصلاح المجتمع ، واستقامة الدنيا ، وسعادة الآخرة.

ومن هنا استلهمتُ فكرة البحث ، واخترتُ له هذا العنوان : « **إيجابية الموت في القرآن والسنة .. رؤية فكرية جديدة** » ، وقسمتُه – بعد المقدمة – إلى ثلاثة مباحث وخاتمة ، وبيان ذلك على النحو التالي :

المبحث الأول : **ماهية الموت ومعانيه ومرادفاته في القرآن الكريم** : وهو بمثابة مبحث تمهيدي ، ويشتمل على ثلاثة مطالب ، هي :

- المطلب الأول : ماهية الموت.
- المطلب الثاني : معاني الموت واستعمالاته في القرآن الكريم.
- المطلب الثالث : مرادفات الموت في القرآن الكريم.

المبحث الثاني : **حقائق عن الموت في القرآن والسنة** : ويشتمل على خمس حقائق ، هي :

- أولاً: الموت والحياة من مخلوقات الله تعالى.
- ثانيًا: أقسام الموت والحياة في القرآن الكريم.
- ثالثًا: الإماتة والإحياء من خصائص الربوبية.
- رابعًا: الموت حتم لازم لجميع الأحياء على وجه الأرض.
- خامسًا: سكرة الموت وما يحدث بعدها.

المبحث الثالث : **تذكر الموت سبب لاستقامة الحياة** : ويشتمل على المطلبين التاليين :

- المطلب الأول : الحكمة من خلق الموت في القرآن والسنة.
- المطلب الثاني : فوائد تذكر الموت : وتنقسم إلى :
  - أولاً: فوائد تذكر الموت للفرد.
  - ثانيًا: فوائد تذكر الموت للمجتمع.

الخاتمة : وتشتمل على أهم نتائج البحث.

هذا .. وأسأل الله تعالى أن يجبر الخلل ، ويعفو عن الزلل ، ويجعل هذا الجهد الضئيل – في خدمة العلوم الإسلامية – خالصًا لوجهه الكريم ، وذخرًا عنده يوم الدين ، وأن ينفع به المسلمين .. آمين.

وصلى الله على النبي وآله وصحبه أجمعين ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

ماهية الموت ومعانيه ومرادفاته في القرآن الكريم

أولى القرآن الكريم الموت عناية كبيرة ، وألمح إلى إيجابيته وتأثيره في الحياة ، فأورد له معاني كثيرة ومرادفات عديدة ، وكثيرًا ما يذكره في مقابل الحياة التي تعددت معانيها كذلك ، وقبل أن ألقي الضوء على هذه المعاني والمرادفات أريد أن أبيّن أولاً معناه في اللغة وماهيته في الاصطلاح ؛ وذلك على النحو التالي :

المطلب الأول : ماهية الموت :

أولاً: معنى الموت في اللغة: يكتفي اللغويون ببيان معنى الموت بذكر الضد فيقولون: «الموت ضد الحياة »[٥] ، « ومَيِّت ضد حيّ »[٦] ، ومات الحيّ : « فارقته الحياة »[٧] ، وأضاف ابن منظور ما نقله الأزهري عن الليث قال: « الموت خلق من خلق الله تعالى »[٨].

ويذكرون للموت بعض المعاني التي تناسب بعض حالات الإنسان الحيّ أو تناسب الحيوان أو الجماد ؛ مثل :

أ- النوم : وهذا للإنسان والحيوان.

ب- قسوة القلب : وهذا للإنسان خاصة فيقال : « ما أموته ، أي : ما أموت قلبه »[٩] ، وكذلك المرائي المشغول بالناس عن الله يقال له : « المتماوت »[١٠].

ت- البِلى : وهذا للإنسان والحيوان ؛ لأنه إذا مات بَلِيَ جسده وتحللت أعضاؤه.

ث- السكون : وهذا للإنسان والحيوان إذا سكن بعد حركة أو ثورة ، وللأرض إذا كانت جرزًا جرداء قبل أن تدب فيها الحياة بالزرع

والنبات ، أو « خلت من العمارة والسكان فهي موات »[١١] ، وكذلك الريح إذا سكنت ، والنار إذا بردت ، والطريق إذا انقطع سلوكه[١٢].

ثانيًا: تعريف الموت في الاصطلاح :

علمنا من معنى الموت في اللغة أنه ضد الحياة ، « والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمه »[١٣].

وعلى هذا عرّف العلماء الموت – كما ذكر القرطبي – بأنه: « انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار »[١٤].

فالموت ليس بعدم محض ، ولا فناء صرف[١٥] ؛ لأن الإنسان يتكون من جسد ونفس تسري في هذا الجسد ، وهي الروح التي نفخت فيه ، فإذا فارقته انقطعت الحياة عن هذا الإنسان فصار ميتًا ، ولا يلزم من ذلك فناء تام للنفس ؛ بل موتها هو مجرد خروجها من الجسد وانفصالها عنه ، يقول الغزالي: « هذه الروح لا تفنى ألبتة ولا تموت ؛ بل تتبدل بالموت حالها فقط ، ولا يتبدل منزلها فتترقى من منزل إلى منزل ، والقبر في حقها إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران »[١٦] ، ويؤكد ابن القيم هذا المعنى بقوله: « موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها؛ فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدمًا محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار ؛ بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب »[١٧].

ونفهم من كلام هذين الإمامين أن الموت على الحقيقة هو مفارقة الروح لبدن الإنسان ؛ والبدن يفنى ويتحلل ويتحول إلى عناصره الأولى من التراب ، بينما تبقى الروح منعمة في عليين أو معذبة في سجين ، وموت الروح هو مفارقتها للبدن فقط دون فنائها وانعدامها.

المطلب الثاني: معاني الموت واستعمالاته في القرآن الكريم:

للموت معانٍ كثيرة واستعمالات متعددة في القرآن الكريم أبرزها ستة؛ هي:

أولاً: خروج الروح من البدن، وانقطاع تعلقه به، وقد عبر الراغب الأصفهاني عن هذا بزوال «القوة الحاسة» أو «زوال القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسد»[١٨].

ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فإن ذوق النفس للموت يكون بمفارقة البدن، وهذا عام للإنس والجن والحيوان، ولا يستثنى منه أحد حتى الأنبياء لقوله عز وجل: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٠]، يقول ابن كثير: «هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق ﷺ عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤]»[١٩].

ثانيًا: المنام؛ لأن «النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل»[٢٠]، ولذلك سمى الله تعالى كلاً من الموت والنوم توفيًا[٢١] فقال سبحانه: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ** ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال جل جلاله: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ﴾ [الزمر: ٤٢].

ثالثًا: الحيوان غير المذكى، يقول الراغب الأصفهاني: «والميْتة من الحيوان؛ ما زال روحه بغير تذكية، قال تعالى: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ** ﴾ [المائدة: ٣]»[٢٢].

فالميتة هي الحيوان الذي مات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد بالشروط الشرعية المذكورة في كتب الفقه[٢٣].

رابعًا: الكفر وانقطاع القلب عن الإيمان بوحدانية الله تعالى ، وقد عبر الراغب الأصفهاني عن ذلك بزوال « القوة العاقلة ، وهي الجهالة »[٢٤] ، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ويوضح الزمخشري هذا المعنى بقوله: « مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق الذي يميز به بين المحق والمبطل والمهتدي والضال ؛ بمن كان ميتًا فأحياه الله وجعل له نورًا يمشي به في الناس مستضيئًا به »[٢٥].

خامسًا: الحزن وضنك العيش وآلام الحياة ، وعبر عنه الراغب الأصفهاني بقوله: « الحزن المكدِّر للحياة ، وإياه قصد بقوله عز وجل: ﴿ **وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ** ﴾ [إبراهيم: ١٧] »[٢٦].

ومعنى الآية : يأتيه أسباب الموت من الآلام والأحزان وأنواع العذاب الحسية والنفسية ؛ ولكنه لا يموت حقيقة ، يقول ابن الجوزي: « أي : همّ الموت وكربه وألمه »[٢٧].

سادسًا: سكون الأرض وعدم نمائها وتحركها واهتزازها بحياة النبات فيها، وقد عبر عن ذلك الراغب الأصفهاني بقوله: « ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الإنسان والحيوان والنبات ؛ نحو قوله تعالى: ﴿ **وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [الروم: ١٩] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا** ﴾ [ق: ١١] »[٢٨].

فعبر الله جل جلاله عن همدان الأرض وسكونها بالموت ، وعن اهتزازها وإنباتها الزرع بالحياة[٢٩].

المطلب الثالث: مرادفات الموت في القرآن الكريم :

بعد تأمل في آيات القرآن وجدتُ للموت ستة مرادفات كالآتي:

- **الأول: التوفي** : والوفاة بلوغ الأمر التمام ، ويعبر به عن الموت لبلوغ الأجل إلى تمامه ونهايته ، وقد عبر الله سبحانه عن الموت بنوعيه بالوفاة ؛ يقول الراغب الأصفهاني: « وقد عُبِّر عن الموت والنوم بالتوفي »[٣٠].

- مثال التعبير عن الموتة الكبرى بالتوفي قوله عز وجل: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ** ﴾ [النحل: ٧٠] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [السجدة: ١١] ، وقوله سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ** ﴾ [النحل: ٣٢].

- ومثال التعبير عن الموتة الصغرى وهي النوم بالتوفي قوله جل جلاله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ** ﴾ [الأنعام: ٦٠] ، وقوله سبحانه: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ﴾ [الزمر: ٤٢][٣١].

- واختلف العلماء في المقصود بالتوفي في قوله تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [آل عمران: ٥٥] على قولين:

القول الأول: المقصود بالتوفي معنى آخر غير الموت الأكبر الذي فيه انقطاع الروح عن البدن ، ويكون على معنيين:

أ- إني متوفيك : « متوفي نفسك بالنوم ... ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف ، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب »[٣٢].

ب- أو بمعنى : « أجعلك كالمتوفى ؛ لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن »[٣٣] - كما يقول الرازي.

القول الثاني: المقصود بالتوفي هو الموت الأكبر ، وبناء على ذلك فسر العلماء الآية على معنيين :

أ- إني متوفيك : « مميتك حتف أنفك لا قتيلاً بأيديهم »[٣٤] ؛ حتى لا ينالوك بأذى.

ب- الواو في قوله تعالى: ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ لا تقتضي الترتيب ، والكلام على التقديم والتأخير بمعنى : « إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا »[٣٥] في آخر الزمان.

- والذي أميل إليه هو أن التوفي في هذه الآية بمعنى النوم ؛ لأن القرآن قد استعمله بهذا المعنى كما أسلفنا[٣٦].

- **الثاني: الفناء** : وهو العدم والبياد ، ويعبر به عن الموت ؛ لأن جسد الميت يتحلل ويكاد ينعدم ويبيد[٣٧].

وقد ورد في القرآن الكريم بمعنى الموت في قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٨] ؛ يقول ابن كثير: « يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السموات إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ؛ بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا »[٣٨].

فالفناء في هذه الآية بمعنى الموت لجميع الأحياء على وجه الأرض ، وبعدها تقوم الساعة.

- **الثالث: الهلاك** : ومعناه افتقاد الشيء أو استحالته أو فساده ، ويكون بمعنى الموت لما فيه من فقدان الميت وتحلل جسده وأعضائه[٣٩].

وقد ورد بمعنى الموت في كثير من الآيات ؛ مثل قوله عز وجل:﴿ **إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ** ﴾ [النساء: ١٧٦] ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ** ﴾ [غافر: ٣٤].

ويمتاز لفظ الهلاك عن لفظ الموت بأمرين :

أولهما: أن لفظ الهلاك يستعمل في الفناء العام الذي يؤدي إلى « بطلان الشيء من العالم وعدمه رأسًا »[٤٠] ؛ مثل قوله جل جلاله: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ** ﴾ [القصص: ٨٨] ، فإن الآية على معنيين :

أ- كل شيء هالك ذاهب معدوم رأسًا إلا ما أريد به وجه الله تعالى ؛ كما قال سبحانه: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** ﴾ [الفرقان: ٢٣] ؛ لأنه لم يُرد به وجه الله تعالى.

ب- كل شيء ميت فانٍ إلا الله سبحانه جل في علاه[٤١].

وثانيهما: الهلاك المشتمل على عذاب وخوف ؛ مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ** ﴾ [مريم: ٧٤] ، وقوله عز وجل: ﴿**فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، فإن إهلاك الأمم مثل قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم يشتمل عادة على عذاب وخوف وفزع[٤٢].

- **الرابع: القضاء** : وهو الفصل في الأمر سواء كان قولاً أو فعلاً ، ويُعبر به عن الموت ؛ « فيقال : فلان قضى نحبه ، كأنه فصل أمره المختص به من دنياه »[٤٣] ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤].

ويمتاز لفظ القضاء عن لفظ الموت بأنه يُعبر به عن الموت النهائي القاطع للحياة تمامًا ؛ مثل قوله تعالى: ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، أي : يقبض أرواحنا ويميتنا موتًا نهائيًا فنستريح مما نحن فيه من العذاب[٤٤] ، وقوله عز وجل: ﴿ **يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ** ﴾ [الحاقة: ٢٧] ، « أي : القاطعة لأمري فلم أبعث بعدها ، ولم ألقَ ما ألقى »[٤٥] من العذاب.

- **الخامس: القتل** : أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت ؛ لكن إذا كان باعتبار فعل فاعل يُسمى قتلاً ، وإذا كان باعتبار فوت الحياة فقط يُسمى موتًا ؛ لذلك قال عز وجل: ﴿ **أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ففرق بينهما[٤٦].

وقد ورد بمعنى الموت من الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** ﴾ [الأنفال: ١٧] ، بمعنى أن الله تعالى هو الذي أماتهم بعد ما أعانكم على قتلهم من غير حول منكم ولا قوة ؛ إذ أمدكم بالملائكة يقاتلون معكم، وألقى الرعب في قلوبهم، يقول البغوي: « معناه: فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ولكن الله قتلهم بنصرته إياكم وتقويته لكم، وقيل: ولكن الله قتلهم بإمداد الملائكة»[٤٧].

- **السادس: الحَسّ** : الحاسَّة هي القوة التي بها تدرك الأعراض الحسية ، ومنها الحواس الخمس ، ويطلق على معنيين :

الأول: أصبتُه بحسّي نحو عنته ورمحته.

الثاني: أصبتُ حاستَه نحو كبدته وفأدته يعني أصبت كبده وفؤاده ، وهذا قد يؤدي إلى الموت ؛ لذا استعمل في القتل فقيل: حسسته أي قتلته[٤٨].

وقد ورد بالمعنى الثاني في قوله عز وحل: ﴿ **إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ؛ أي تقتلونهم بأمره وقضائه ، والحس ليس مجرد قتل ؛ بل قتل باستئصال وإبادة[٤٩].

فهذه الألفاظ الستة قد وردت في القرآن الكريم بمعنى إنهاء الحياة والتسبب في إزهاق الروح وانقطاعها عن البدن ؛ مما يدل على أن القرآن قد أولى الموت عناية كبيرة ، ونوّع في التعبير عنه بألفاظ متعددة حسبما يقتضيه سياق الآيات ، وفي ذلك إلماح إلى إيجابيته وتأثيره في الحياة.

المبحث الثاني

حقائق عن الموت في القرآن والسنة

بعد أن علمنا ماهية الموت في اللغة واصطلاح العلماء ، ومعانيه ومرادفاته في القرآن الكريم .. نريد أن نتعرف على حقائق عن الموت تدل على مدى إيجابيته في القرآن والسنة ، وعظم تأثيره في معتقد الإنسان وفكره ووجدانه وسلوكه ، وذلك من خلال النقاط الآتية :

أولاً : الموت والحياة من مخلوقات الله تعالى :

يوجد ارتباط وثيق بين الموت والحياة في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ، وهو كذلك مستقر في نفس الإنسان وعقله ؛ فلا يمكن تصور الموت بدون الحياة ، ولا يمكن إدراك الحياة من غير ترقب الموت ، لذلك يذكر الله تعالى الموت والحياة مقترنين في كثير من الآيات ؛ مثل قوله تعالى :

- ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

- ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢].
- ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].
- ﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الدخان: ٨].
- ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم: ٤٤].

وكذلك يقرن بينهما الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث مثل الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)[٥٠].

وذلك لأن الموت والحياة مخلوقان من مخلوقات الله تعالى ؛ لا يمكن أن يؤدي كل واحد منهما وظيفته بدون الآخر؛ بل هما يؤديان وظيفة واحدة هي الابتلاء والاختبار؛ يقول الله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

فالموت مخلوق ، خلق ليؤدي وظيفة إيجابية مثل الحياة تمامًا ؛ بل هو أسبق من الحياة ، وبدونه لا تستقيم الحياة ؛ يقول ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: « الموت صفة وجودية ، خلافًا للفلاسفة ومن وافقهم ، قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ، والعدم لا يوصف بكونه مخلوقًا »[٥١].

وما قاله صحيح .. فالموت أمر وجودي إيجابي ؛ لأن بدء خلق الإنسان بالموت ، فالأطوار الأولى من تراب ونطفة ومضغة تعد في حيز الموت قبل نفخ الروح وسريان الحياة فيها ، فقدم الله تعالى الموت على الحياة

في الخلق ؛ « لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوهما »[٥٢] ، ويشهد لذلك الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ، قال: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَعَمَلِهِ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ...)(٥٣)، فنفخ الروح بعد خلق النطفة والعلقة والمضغة ، وهي أطوار في حيز الموت.

فهذه هي الحقيقة الأولى التي لا نجدها في دين آخر غير دين الإسلام ، ولا في كتاب آخر غير القرآن ؛ وهي أن الموت مخلوق من مخلوقات الله مقدم على الحياة في الخلق ، وأنه خُلق لوظيفة عظيمة وحكمة سامية[٥٤].

ثانيًا: أقسام الموت والحياة في القرآن الكريم :

وكما قرر لنا القرآن الكريم حقيقة خلق الموت ، أكد لنا حقيقة ثانية ؛ وهي أن الموت ليس موتًا واحدًا بل هو موتان ، كما أن الحياة حياتان ؛ يقول الله عز وجل: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٨] ، ويقول سبحانه وتعالى حاكيًا عن أهل النار: ﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ** ﴾ [غافر: ١١].

فالآيتان السالفتان تقسم الموت إلى موتتين ، هما:

- الموتة الأولى : بدء خلق الإنسان بالموت عندما كان آدم ترابًا ثم صلصالاً كالفخار من حمإٍ مسنون ، وكان بنو آدم نسمًا كالذر في صلب أبيهم آدم عليه السلام ، ثم خلقوا نطفة في أصلاب آبائهم ، ثم أصبحوا نطفة أمشاجًا فعلقة فمضغة في أرحام أمهاتهم قبل نفخ الروح فيهم.

- والموتة الثانية : عند قبض أرواحهم بعد انقضاء آجالهم في حياتهم الدنيا.
- ويقابل الموتتين حياتان ، هما : الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة.

يقول ابن عباس ﷺ مقررًا هذا التقسيم: « كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا ، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة ؛ فهما موتتان وحياتان »(٥٥).

ويرد على ذلك إشكال هو حياة البرزخ ؛ إذ وردت أحاديث كثيرة تؤكد رجوع الروح إلى الإنسان وهو في قبره ثم يُسأل سؤال الملكين ثم ينعم أو يعذب ، وهذه الأحاديث قد بلغت مبلغ التواتر المعنوي ؛ كما قال القاضي ابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية: « قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به »(٥٦).

فمن هذه الأحاديث : ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ ؟ فأما المؤمن ، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة ، فيراهما جميعًا ... وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال: لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)(٥٧) ، فإنه يسمع قرع نعال أصحابه عند توليهم عنه بعد دفنه ، ويجيب الملكين ثم ينعم إن كان مؤمنًا ويعذب إن كان كافرًا أو منافقًا.

وقد جاء التصريح بإعادة الروح إلى الجسد في الحديث الذي رواه البراء بن عازب ﷺ قَالَ ﷺ : (... فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَيَقُولانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ ...)[٥٨].

فهذان الحديثان يؤكدان أن الروح تُعاد إلى الجسد ، ويحيا الإنسان في قبره حياة مختلفة عن حياة الدنيا.

- والجواب عن ذلك : أن حياة البرزخ ليست منفصلة عن الحياة الآخرة ؛ بل هي أولى مراحل الآخرة ، كما ورد في الحديث أن عثمان بن عفان ﷺ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ) قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلا وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ)[٥٩].

وحياة الميت في قبره ليست خالصة مثل حياة النائم في الدنيا ، يقول ابن القيم: « إذا كان النائم روحه في جسده وهو حي ، وحياته غير حياة المستيقظ ، فإن النوم شقيق الموت ؛ فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روحه إلى بدنه »[٦٠].

وعلى كل حالٍ فإن إعادة روح الميت إلى جسده وهو في قبره إعادة عارضة لا تتعارض مع كونه ميتًا الموتة الثانية ؛ لأن حياته في البرزخ ليست حياة مستقرة مثل الحياة في الجنة[٦١].

ثالثًا: الإماتة والإحياء من خصائص الربوبية :

خلق الله تعالى الإنسان في أطواره الأولى في حيز الموت ، ثم أحياه الحياة الدنيا ، ثم سلب الحياة منه فأماته الموتة الثانية ، ثم بعثه فمنحه الحياة الثانية الأبدية ، فالذي يمنح الحياة هو الله ، والذي يسلبها هو الله جل في علاه ، وهذه حقيقة لا يماري فيها إلا الملحدون الذين لا يؤمنون بإله خالق للكون ، وبارئ للإنسان ، ومانح للحياة.

فمن خصائص الربوبية الإماتة والإحياء ؛ وهذه حقيقة عظيمة يغفل عنها كثير من الناس ، وقد يسهل على الفهم أن الإحياء من خصائص الربوبية ؛ لأننا نرى الأشياء الجامدة الميتة تدب فيها الحياة بقدرة الله تعالى ؛ مثل البذرة التي توضع في الأرض فإذا سقيت بالماء نبتت وترعرعت وأضحت أوراقًا وأزهارًا وثمارًا ، ومثل البيضة الصلبة تنفلق عن فرخ صغير لا يلبث أن يكبر فيصبح طيرًا جميل الشكل ، بديع المنظر ، متناسق الألوان ، يقول الله تعالى: ﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ﴾ [الروم: ١٩].

لكن ربما يعسر على بعض العقول والأفهام أن الإماتة من خصائص الربوبية ؛ لأن الإنسان ينشغل عادة بسبب الموت لا بحقيقته ، فإذا علم بموت أحد تساءل عن السبب كالمرض أو القتل أو نحو ذلك.

ولذلك لما ناظر النمروذ إبراهيم عليه السلام ، قال إبراهيم: ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ؛ لأنه ظن أنه عندما يأمر جنوده بقتل إنسان فإنه بذلك قد أماته حقيقةً ، وهذا هروب من الإذعان للحق والاعتراف بأن حقيقة الموت هي سلب الحياة ، وهذا لا يقدر عليه إلا الذي منحها أول مرة وهو الرب جل في علاه ، ولذلك انتقل إبراهيم من هذه الحجة إلى حجة أخرى لا تنفصل عن الأولى – لا كما ظنّ بعض

المفسرين[٦٢] – بل تعضدها وتفسرها وتقويها ، ﴿ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، فإن إبراهيم عليه السلام أراد أن يكشفه أمام نفسه ؛ فكأنه قال له إن كنت تحيي وتميت حقيقة فإذًا أنت تقدر على فعل كل شيء في الكون فأتِ بهذه الشمس من المغرب ؛ لأن القادر على منح الحياة وسلبها قادر على تدبير شئون الكون وتصريفه كيف شاء ، يقول ابن كثير: « أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهًا كما تدعي تحيي وتميت فأتِ بها من المغرب ، فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة »[٦٣].

وقد يرد على ذلك إشكال وهو إذا كان الإحياء من خصائص الربوبية ، فكيف ينسب إلى المسيح عيسى عليه السلام إحياء الموتى ؛ كما قال تبارك وتعالى حكاية عنه: ﴿ **وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ٤٩].

والجواب : أن الذي يحيي الموتى على الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى فيمنحهم الحياة كما سلبها منهم عند الموت ، وإنما أجرى الله تعالى إحياء بعض الموتى على يد عيسى عليه السلام معجزة له حتى يصدق الناس أنه مرسل من عند الله ، ولذلك قال عيسى: ﴿ **وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ ، وقال: ﴿ **وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، وقال الله تعالى له: ﴿ **وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي** ﴾ [المائدة: ١١٠] ، فإحياء الموتى

آية من آيات الله جرت على يد عيسى تأييدًا له بإذن الله وأمره ، وأقدره الله عليها بقدرته(٦٤).

وهذا ليس خاصًا بعيسى بل أجراه الله تعالى على يد إبراهيم عليه السلام عندما قال له: ﴿ **فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، وجعله آية لموسى عليه السلام عندما أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا الميت بعضو منها فقام حيًا بإذن الله ، ﴿ **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٣](٦٥).

رابعًا: الموت حتم لازم لجميع الأحياء على وجه الأرض :

الموت حتم لازم لا مفر منه لجميع الأحياء على وجه الأرض من الإنس والجن والحيوانات ؛ يقول الله تعالى: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** (٢٦) **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** (٢٧) ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ، ويقول جل في علاه: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٨٨] ، ويقول سبحانه: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولو نجا منه أحد لنجا منه أنبياء الله ورسله وخاصة خاتمتهم وخيرتهم محمدًا ﷺ ، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ، وقال عز وجل: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٠] ، وقد أعلن النبي ﷺ بهذه الحقيقة عند ذكره وتعوذه بالله تعالى ، فقال: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ، أَنْ تُضِلَّنِي ، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ)(٦٦).

وزمان الموت ومكانه مغيبان عنا ، لا علم لنا بالوقت الذي يحضر فيه ، ولا بالمكان الذي ينزل بنا فيه ، فإن علم ذلك لله وحده ، وهو أحد مفاتيح

الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إِلا اللهُ : ﴿ **إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان: ٣٤])[٦٧].

وقد حدد الله تعالى لكل عبد أجلاً ، ولكل أمة موعدًا ، فإذا جاء أجل الإنسان مات في اللحظة التي حددها الله له لا يتأخر عنها ولا يتقدم ؛ يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً** ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ويقول سبحانه: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وعندما يأتي أجل الإنسان وتحين ساعة وفاته فإنه لا ينفعه الفرار حينئذٍ، ولا يحصنه حصن ولا يمنعه منه مانع ، يقول الله سبحانه: ﴿ **نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** ﴾ [الواقعة: ٦٠] ، ويقول جل في علاه: ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ** ﴾ [الجمعة: ٨][٦٨].

ورغم أن كثيرًا من آيات القرآن تصارحنا بهذه الحقيقة وهي لزوم الموت لجميع الأحياء على وجه الأرض ، وهذا ما يشهد له الواقع ؛ إلا أن الناظر المتدبر يجد بعض الآيات تنفي الموت عن الشهداء في سبيل الله؛ مثل قول الله تعالى: ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٤].

والجواب عن ذلك أن الشهداء قد قتلوا بالفعل وماتوا الموتة الثانية التي تنهي حياتهم الدنيا ؛ بدليل أن الله تعالى قال في الآية الثانية: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ، فأثبت لهم القتل الذي فيه إزهاق الروح ؛ لكنه نهانا عن وصفهم

بالموت لأنهم لا يكابدون سكراته وآلامه كما يحدث لعموم الناس ؛ إذ طعنة القتل لهم كألم قرصة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ)[٦٩].

ثم بمجرد خروج أرواحهم ينتقلون إلى الحياة الآخرة فيحيون فيها حياة كاملة رغيدة طيبة ، ويبدلهم الله تعالى بأبدانهم التي أتلفها الأعداء أبدانًا أخرى أكمل لدوام النعيم[٧٠] ؛ كما جاء في الحديث الذي رواه مَسْرُوقٍ ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ – يعني ابن مسعود ﷺ – عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ - يعني النبي ﷺ - فَقَالَ: (أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاعَةً ، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا ، قَالُوا: يَا رَبِّ ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا)[٧١].

خامسًا: سكرة الموت وما يحدث بعدها :

كل إنسان عند موته يعاني من سكرات الموت ، وهي كرباته وغمراته والغشيان الذي ينشأ عن آلام نزع الروح وخروجها من كل عضو من أعضاء الجسد[٧٢] ، يقول الغزالي: « اعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ... ، والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ؛ حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم »[٧٣].

وهذه الآلام والسكرات تعتري المؤمنين كما تعتري الكافرين ، وقد عانى منها الرسول ﷺ وهو في مرض موته ، فجعل يمسح وجهه بالماء ويقول: (لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات)[٧٤].

وعانى منها الصديق أبو بكر ﷺ ، وقد دخلت عليه ابنته عائشة رضي الله عنها وهو في مرض الموت ، فلما ثقل عليه تمثلت بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى * إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدرُ

فكشف عن وجهه وقال ﷺ : « ليس كذلك ، ولكن قولي: ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** ﴾ [ق: ١٩] »[٧٥].

وقد وصف الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ ما يعانيه من سكرات الموت وصفًا بليغًا فقال لابنه وهو يحتضر: « يا بني والله كأن جنبي في تخت[٧٦] ، وكأني أتنفس من سمّ إبرة ، وكأن غصن شوك يُجذب من قدمي إلى هامتي ، ثم أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي * في تلال الجبال أرعى الوُعولا »[٧٧].

ومعاناة الكافر والفاجر لسكرات الموت أشد من معاناة المؤمن[٧٨] ، وقد بيّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [الأنفال: ٥٠] ، وقوله عز وجل: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وذلك لأن الملائكة تنزع روح الكافر بشدة وتضربه بقوة ، فيكون ألمه عند الاحتضار أضعاف ألم المؤمن[٧٩].

وكل كافر وعاصٍ يتمنى العودة إلى الدنيا عند الاحتضار ، فالكافر يتمنى الرجوع لعله يسلم ، والعاصي لعله يتوب ويحسن ، ولكن هيهات فإنها

أمنية بعيدة المنال ، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

وفي هذه اللحظات العصيبة الفارقة في مصير الإنسان ؛ يفرح المؤمن بلقاء ربه ويشتاق إليه عندما تبشره الملائكة بمغفرة الله تعالى له ورحمته ورضوانه وجنته ، يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٠].

أما الكافر فإنه يكره لقاء الله عندما تبشره الملائكة بغضب الله وعذابه وناره ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ، فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكِ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ)[٨٠].

وبعد قبض الأرواح تصعد روح المؤمن إلى عليين ، وتهبط روح الكافر إلى سجين ، وينعم المؤمن في قبره بأنواع النعيم ، ويعذب الكافر والمنافق والفاسق بألوان العذاب.

وكل هذا يحدث عندما تشرف حياة الإنسان على المغيب ، ويرسل الله تعالى ملك الموت ليقبض روحه ومعه أعوانه من الملائكة ؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [السجدة: ١١] ، وقال سبحانه: ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ** ﴾ [الأنعام: ٦١].

وهؤلاء الرسل من الملائكة على قسمين : ملائكة الرحمة تأتي المؤمن في صورة حسنة ، وملائكة العذاب تأتي الكافر في صورة مخيفة ، ففي حديث البراء بن عازب ﷺ أن الرسول ﷺ قال: (إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ[٨١] مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، عَلَيْهِ السَّلامُ ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ. قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلا يَمُرُّونَ ، يَعْنِي بِهَا ، عَلَى مَلإٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ ، إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ... قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[٨٢] ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[٨٣] مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ

الْمُسُوحِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأ مِنَ الْمَلائِكَةِ ، إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ ، فَلا يُفْتَحُ لَهُ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ **لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ [الأعراف: ٤٠] ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: ٣١])[٨٤].

وما يحدث للميت حال احتضاره لا نشاهده ولا نراه ولا نعلم حقيقته ، وإن كنا نرى آثاره ؛ كما قال الله تعالى: ﴿ **فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ** (٨٣) **وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ** (٨٤) **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥] ، وقال جل في علاه: ﴿ **كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ** (٢٦) **وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ** (٢٧) **وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ** (٢٨) **وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ** (٢٩) **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ** ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠].

= **ونستفيد من هذه الحقائق سالفة الذكر :**

- أن الموت في القرآن الكريم والسنة المشرفة يتصف بالإيجابية وليس السلبية والعدمية ، فهو مخلوق من مخلوقات الله ، يرتبط بالحياة ليؤديا وظيفة واحدة هي الاختبار والابتلاء للإنسان.
- وهو قسمان لكل قسمٍ مظاهره ومراحله التي لها أثر كبير في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية ؛ فالموتة الأولى تشتمل على عناصر تكوين الإنسان الأولية قبل أن ينفخ فيه الروح وتدب فيه الحياة ، وهي مرحلة عجيبة وبديعة ، والموتة الثانية تنهي حياته الدنيا بطريقة

عجيبة وبديعة كذلك ؛ إذ تخرج روحه من كل جزء وعضو من أعضاء الجسد ، وفيها يشاهد الإنسان أولى مراحل الآخرة وهو في الدنيا ، فهي تشبه غلس الليل الذي ينتشر بقطعه السوداء في أفق السماء وضوء الفجر ينبلج من أعماقه ليؤذن بيوم جديد وحياة جديدة ، وفي ذلك دليل ظاهر على قدرة الله القاهرة الباهرة ؛ إذ لا يسلب الحياة إلا الله كما أنه لا يمنحها سواه سبحانه.

- وكون الموت حتم لازم لجميع الأحياء على وجه الأرض قمة الإيجابية ؛ إذ هو إعلان منشور لكل إنسان يقرأ فيه مصيره المحتوم الذي يُلزمه – لو كان يعتبر – بالعبودية والتواضع والانكسار للحي القيوم الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون.
- والتفرقة الحاصلة عند الاحتضار بين المؤمن والكافر ، وبين الصالح والفاسق ؛ من معاناة سكرات الموت وتبشير الملائكة ؛ لأكبر عبرة وتذكرة وحافزًا على الاستقامة لمن يرى آثار ذلك على المحتضر ، ويفكر في حاله ومصيره ويضع نفسه مكانه ، وحتمًا سيأتي ذلك اليوم ، ومن أراد واعظًا فالموت يكفيه.

المبحث الثالث

تذكر الموت سبب لاستقامة الحياة

تتجلى إيجابية الموت في تذكره وتصور ما يعقبه من غيبيات ؛ فإن ذلك وحده كفيل بتصحيح مسار الإنسان في حياته الدنيا ، وكفيل كذلك بضمان حياة سعيدة رغيدة له في الآخرة ، ويمكن توضيح ذلك من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول: الحكمة من خلق الموت في القرآن والسنة :

سبق في المبحث السالف تقرير حقيقة أن الموت مخلوق من مخلوقات الله تعالى ؛ أخذًا من قوله عز وجل: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (١) **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ [الملك: ١، ٢] ، فكما أن في هاتين الآيتين دليلاً ظاهرًا على أن الموت مخلوق وأنه أمر وجودي إيجابي ؛ فكذلك فيهما بيان واضح للحكمة من خلق الموت إذ علل بقوله: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ ، وتوضيح ذلك ببيان ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ذلّ العبد الفاني لمن بيده الملك :

فإن الله تعالى قد خلق الموت وكتبه على جميع الخلق وأذلهم به ، وغرس في فطرهم اليقين بزوال حياتهم ، فكان في ذلك إلزام لهم بالفقر والاحتياج إلى الحي الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير[٨٥].

وفي ذلك دليل فطري على وجود الله تعالى وربوبيته ووحدانيته وقدرته؛ إذ كل إنسان يعلم يقينًا أنه لم يمنح الحياة لنفسه بعد أن كانت في حيز الموت ، وأن الذي منحها الحياة لا بد أن يكون ربًا خالقًا وإلهًا قديرًا[٨٦].

وكذلك كل إنسان لا يستطيع أن يدفع الموت عن نفسه ﴿ **قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٨] ، فيشعر

بالضعف والعجز أمام قدرة الله القاهرة التي تسلب الحياة منه وتقهره بالموت.

ولا شك أن الشعور بالضعف والعجز والفقر أمام القهار الجبار القادر المقتدر يعد أبرز مظهرٍ للعبودية على وجه الأرض ، فإن استثمر العبد هذا الشعور في التضرع إلى الله تعالى وإظهار الفقر التعبدي له سبحانه والوقوف بين يديه خاشعًا ذليلاً ، والسجود لعظمته ، والركوع لكبريائه ؛ كان تعبدًا إيمانيًا يثاب عليه ، وإن عاند وكابر وعلا في الأرض بغير الحق لازمه ذل الموت فأحنى رقبته ، وكسر أنفه ؛ فكان تعبدًا قهريًا لا يثاب عليه.

وخلاصة هذا الأمر أن الحكمة من خلق الموت هي إلزام المخلوق بذلّ العبودية والخضوع القهري للخالق القدير الذي بيده الملك سبحانه ، وهذه حكمة خفية مفهومة من معنى الآيتين المتصدرتين لسورة الملك.

والأمر الثاني: الابتلاء والاختبار :

وهذه هي الحكمة الظاهرة من خلق الموت المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ ؛ والمعنى: ليختبركم فينظر أيكم أحسن عملاً في فترة الحياة الدنيا إلى الموت الناقل إلى الآخرة(٨٧).

وقد ذكر العلماء في معنى قوله عز وجل: ﴿ **أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ أقوالاً كثيرة متوافقة ومتعاضدة ؛ تدل دلالة واضحة على أن الحكمة المقصودة من خلق الموت هي استقامة الحياة بتحقيق العبودية لله تعالى ؛ فمن هذه الأقوال: ﴿ **أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ :

- أخلصه وأصوبه ؛ لأنه إذا كان خالصًا غير صواب لم يقبل ، وكذلك إذا كان صوابًا غير خالص ، فالخالص أن يكون لوجه الله تعالى، والصواب أن يكون موافقًا لسنة الرسول ﷺ.

- أتمّ عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله ؛ لأن حسن العمل يترتب على تمام العقل ، فمن كان أتمّ عقلاً كان أحسن عملاً.
- أزهد في الدنيا وأترك لها.
- خير عملاً وليس أكثر عملاً ؛ لأن العبرة بالنوع لا بالكم.
- أكثركم للموت ذكرًا ، وأحسن استعدادًا ، وأشد خوفًا وحذرًا.
- ليبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره ، وبالحياة ليبين شكره(٨٨).

فهذه الأقوال تدل دلالة صريحة على إيجابية الموت ؛ لأن تذكره يحمل على إخلاص العمل وإتقانه ، واستقامة السلوك وترشيده ، ويربي المرء على الشكر والصبر ، والإحسان في عبادة الخالق ، وحسن معاملة المخلوق ، وبذلك تستقيم الحياة الدنيا.

والأمر الثالث: الاستعداد للآخرة :

إن في خلق الموت دليلاً قويًا على إمكانية البعث ؛ لأن القادر على منح الحياة لمن كان في حيز الموت ، وسلب الحياة منه عند الاحتضار وإماتته مرة أخرى ؛ قادر كذلك على إحيائه الحياة الثانية وبعثه بعد موته للحساب والجزاء ، يقول الله تعالى: ﴿ **نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ** (٥٧) **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ** (٥٨) **أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** (٥٩) **نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** (٦٠) **عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦١) **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٦٢].

وإذا كان الموت عنوانًا على البعث ومعبرًا إلى الحياة الأبدية ؛ فإن تذكره يدعو إلى الاستعداد للآخرة ؛ ولذلك ندب النبي ﷺ إلى زيارة

القبور فقال: (قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ...، فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ)[٨٩] ، وقال ﷺ : (... فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ)[٩٠].

فالله تعالى منحنا الحياة الدنيا لنستكثر فيها من الزاد النافع والعمل الصالح الذي ينفعنا في حياتنا الآخرة ، والموت يذكرنا دائمًا بموعد الرحيل من الحياة المؤقتة إلى الحياة الأبدية ، فقد أعطانا سبحانه الحياة التي نقدر بها على العمل ، وسلط علينا الموت الذي هو داعينا إلى اختيار العمل الحسن على القبيح ؛ « لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه»[٩١].

وقد ألمح الله تعالى إلى هذه الحكمة في قوله سبحانه: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ [الملك: ٢] ؛ إذ ذيل الآية باسمين من أسمائه الحسنى وهما (العزيز والغفور) ؛ إشارة إلى أنه يعاقب المسيء بعزته وقوته ، ويغفر للتائب المنيب بعفوه ورحمته ، ويثيب المحسن بكرمه وفضله ؛ لأنه هو العزيز الغفور الحليم الشكور جل في علاه.

ونخلص مما سبق إلى أن الحكمة من خلق الموت في القرآن والسنة هي مجموع الأمور الثلاثة سالفة الذكر ، وهي : أن تذكره يلزم العبد بالخضوع والذل والطاعة لربه وخالقه الذي منحه الحياة ، ويحمله على إحسان العمل في الدنيا ، والاستعداد للحياة الأبدية في الآخرة.

ويمكن التعبير عن الحكمة الجامعة من خلق الموت بعبارة موجزة ؛ هي: (**تذكر الموت سبب للاستقامة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة**).

المطلب الثاني: فوائد تذكر الموت :

وقد أمر الرسول الكريم ﷺ بالإكثار من تذكر الموت فقال ﷺ : (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ، يعني الموت)[٩٢].

ففي هذا الحديث الشريف ذكر النبي ﷺ الداء ووصف الدواء ؛ فجمع كل مظاهر الظلم والإفساد في الأرض ، وكل أسباب الجرائم والمعاصي في كلمة واحدة (اللذات) ، وبيّن أن علاج هذه الأمراض في الإكثار من ذكر الموت ، وليس في ذلك عجب فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم .. وتوضيح ذلك بالأمثلة الآتية :

- الملك والرئاسة والمنصب والجاه .. لذة.
- العجب والكبر والخيلاء والتفاخر والتعالي على الناس .. لذة.
- الشهرة والتطلع إلى المدح من الناس وجذب أنظارهم وإعجابهم .. لذة.
- حب المال وجمعه وتكثيره وتكنيزه .. لذة.
- العيش في القصور الفارهة والحدائق الغناءة ، والنوم على الحرير والديباج .. لذة.
- تناول ألوان الأطعمة والأشربة المحرمة .. لذة.
- سكر العقل بشتى أنواع المسكرات والمخدرات عند كثير من الناس .. لذة.
- النظر المحرم والاختلاط الممنوع بالنساء ، واقتراف الفواحش والمنكرات .. لذة.
- إظهار القوة والتباهي بها والبطش والفتك بالآخرين .. لذة.
- استعباد الناس وإذلالهم والتسلط عليهم ، واحتلال أرضهم ونهب ثرواتهم .. لذة.

فكل هذه لذات وشهوات ، وحبها والحرص عليها ، والتنافس فيها ، والاقتتال من أجلها ؛ هو سبب انتشار الظلم والفساد والجرائم والمعاصي المقيتة في هذه الدنيا.

وقد بيّن الله تعالى ذلك في كثير من الآيات ..

- فقال جل في علاه في تعديد اللذات والشهوات: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ [آل عمران: ١٤].
- وقال سبحانه عن حب الإنسان لجمع المال وتكثيره وتخزينه : ﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ** ﴾ [الهمزة: ١ - ٣].
- وقال عن قارون الذي تفاخر بماله وزينته وأظهر العجب والكبر والخيلاء : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [القصص: ٧٨، ٧٩].
- وقال عن تباهي فرعون بملكه : ﴿ **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الزخرف: ٥١].
- وقال عن إعجاب قوم عاد بقوتهم وبطشهم للضعفاء وتجبرهم في الأرض : ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا**

بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥] ، ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

وهكذا نجد كل مظاهر الظلم والفساد ، وجميع أسباب الجرائم والمعاصي ؛ إنما هي شهوات ولذات محرمة ، وتذكر الموت يهدم هذه اللذات التي تعاظمت وتضخمت في نفس الإنسان ، ويهدمها ويقطعها عن قلبه الذي تعلق بها ، يقول الغزالي في تعليقه على هذا الحديث : « نغصوا بذكره – يعني الموت – اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى »[٩٣] ، وضرب مثلاً لبيان كيفية هدم ذكر الموت للشهوات واللذات وقطعه التعلق بها فقال: « والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو ، فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات ؛ لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل ، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور! »[٩٤].

فتذكر الموت يذيب الشهوة المحرمة ويقطع التعلق بها ، ويستبدل بحبها خوفًا من الله تعالى ، وحرصًا على الاستعداد للقائه في الآخرة.

ولترشيح هذا المعنى سأذكر جملة من فوائد تذكر الموت للفرد والمجتمع على النحو التالي:

أولاً: فوائد تذكر الموت للفرد :

من الفوائد التي تعود على الفرد إذا أكثر من ذكر الموت :

(١) تحقيق التوحيد بإخلاص العبادة لله تعالى :

الرياء وحب الثناء من الناس لذة وشهوة نفسية ، وتذكر الموت يقطع التفكر فيها ، ويصرف الذهن إلى التفكر في سكراته وأهواله ، ويحمل

النفس على الاستعداد له بصالح الأعمال ، فينشغل القلب بذكر الله تعالى ويذهل عمن سواه ، وهذا هو الإخلاص ؛ أن يعبد العبد ربه ابتغاء مرضاته ذاكرًا له وحده ذاهلاً عن الخلق أجمعين[٩٥] ، ولذلك قال النبي ﷺ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اذْكُرُوا اللَّهَ ، اذْكُرُوا اللَّهَ ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ)[٩٦] ، فشعورنا بقرب مجيء الموت يحملنا على ذكر الله تعالى وعدم الانشغال بغيره.

وتذكر الموت يملأ القلب بالخوف من أهواله التي لا ينجي منها إلا العمل الصالح المقبول عند الله ، والأعمال المدخولة المشتملة على الرياء محبطة غير مقبولة ؛ كما قال عز وجل: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** ﴾ [الفرقان: ٢٣].

فيخشى العبد أن يموت فيلقى الله تعالى بأعمال محبطة وهو في أشد الحاجة إليها ، فيحرص على تحقيق الإخلاص في أعماله عسى أن تنفعه يوم القيامة[٩٧].

(٢) تزكية النفس وتطهيرها من الآفات :

آفات النفس نتاج طبيعي لشهواتها ولذاتها ؛ فالإنسان يتلذذ بالإعجاب بنفسه والتعاظم والتعالي على غيره ، ويجد متعته في التبختر والخيلاء ، وتستريح نفسه عند زوال النعمة عن غيره فيستمتع بالحسد ، وتتشفى نفسه بالغل والحقد .. وهكذا آفات النفس تتولد من لذاتها وشهواتها المقيتة.

وتذكر الموت يقطع حبل هذه اللذات ويعلن للنفس بالحقيقة التي ينبغي ألا تغفل عنها ؛ أنها ستذوق الموت ويتحول جسدها إلى تراب وطعام للدود ، ومن كانت نهايته جيفة عفنة فلماذا يتكبر؟! قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ** ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢].

فخليق بمن « يصير روثًا في أجواف الديدان ، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل إنسان »[٩٨] ألا يتكبر ، وأن يعلم أنه لا يليق به إلا التواضع.

والحسد سببه نعمة أنعم الله تعالى بها على المحسود يريد الحاسد زوالها[٩٩] ، ولو تذكر الموت أيقن بفناء الدنيا بما فيها من متاع زائل ، وأنه قد يفجأه الموت فيلقى الله تعالى بقلب مريض مليء بالحسد والحقد والغش للمسلمين ، ومن هذا حاله لا ينجو من العذاب ؛ لأنه لا ينجو من الخزي والعذاب في الآخرة إلا صاحب القلب السليم من الآفات والضغائن ، يقول تعالى: ﴿ **وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

وبالجملة .. فإن الموت فاصل بين الدنيا والآخرة ؛ فمن تذكر الموت علم أنه لا يمكن أن يكون بجوار الله تعالى في مستقر رحمته إلا إذا أتى بقلب طيب طاهر من الخبث لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا ، ومن أتى الله تعالى بقلب مليء بالخبائث احتاج إلى تطهير في النار، فيرهبه ذلك ويرعبه ويحمله على أن يطهر قلبه من الآفات قبل أن يُطهر في نار جهنم.

وهكذا .. نجد تذكر الموت سببًا قويًا لتزكية النفس وتطهيرها من آفاتها وشهواتها المحرمة.

(٣) قصر الأمل والقناعة والزهد في الدنيا :

حب الدنيا رأس كل خطيئة ؛ لأنه يحمل على الاستكثار من لذاتها والوقوع في أسر شهواتها ، وتذكر الموت يجعل الإنسان على وجل وخوف ؛ لأنه يأتي بغتة فيحمله ذلك على قصر الأمل والزهد في الدنيا والقناعة بالقليل منها ؛ يقول الغزالي: « ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا »[١٠٠]

والذي يكون الموت على ذكرٍ دائمٍ منه لا يكاد يفارق باله يعيش في هذه الدنيا كأنه غريب يوشك أن يتركها ويرحل ، فلا يحرص على الاستكثار منها ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي ، فَقَالَ: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ »[١٠١].

ولا شك أن الزهد في الدنيا والقناعة بالكفاف منها يجعل العبد في راحة نفسية وسعادة قلبية ؛ لأنه لا ينشغل بهمومها ، وفي ذلك السعادة والفلاح كل الفلاح ؛ يقول ﷺ : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ)[١٠٢] ، وهذا من كرم الله تعالى للعبد ، يقول الدقاق: « من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة »[١٠٣].

(٤) الإحسان والإتقان في العمل :

لا يعني أن تذكر الموت سبب للزهد في الدنيا أن يترك المرء العمل ولا يأخذ بأسباب التقدم والرقي فيها .. لا ؛ بل تذكر الموت يدعو إلى إحسان العمل وإتقانه سواء كان هذا العمل عبادة محضة أو سبيلاً من سبل الحياة وسببًا من أسباب المعاش ، فالذي يكثر من تذكر الموت يحسن في العبادة؛ فيعبد الله كأنه يراه فيخشع قلبه في الصلاة ، ويخبت عند الذكر ، ويتدبر عند قراءة القرآن ، ويتضرع في الدعاء ؛ لأنه ينتظر الموت في كل لحظة فيحب أن يلقى ربه بعمل صالح يليق بجلاله سبحانه ، ولذلك قال الرسول ﷺ : (إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع)[١٠٤] ، كأن المصلي يستشعر أنها آخر صلاة في الدنيا ؛ فيرجو أن يختم حياته بصلاة خاشعة يقبلها الله تعالى ويثيبه عليها.

بخلاف الغافل عن تذكر الموت المضيع للصلاة فإنه يفجأه الموت من قبل أن يقدم لحياته الأخروية الأبدية عملاً صالحًا ينفعه فيها ، فحينها يندم أشد الندم ، ويندب نفسه ولات ساعة مندب ، ﴿ **يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾ [الفجر: ٢٤].

وكما أن تذكر الموت يحمل على الإحسان في العبادة الدينية ؛ فكذلك هو سبب لإتقان العمل الدنيوي ؛ لأن المؤمن متبع لمحاب الله ، ومأمور بالأخذ بالأسباب ، ومفروض عليه الإحسان في كل عمل ؛ لذا قال الرسول ﷺ : (إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ)[١٠٥]، وقال ﷺ : (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)[١٠٦].

وإذا كان الإحسان في العمل فرض مكتوب وهو من محبوبات الله سبحانه ؛ فحري بكل مسلم يكثر من ذكر الموت أن يحرص على إتقان عمله حتى ينال الثواب الجزيل من الله تعالى.

والعاجز الضعيف المتكاسل هو الذي يؤثر لذة الكسل والدعة على النشاط والعمل الدؤوب المثمر المتقن ، ويتمنى النجاح والفلاح من غير عمل وكفاح ، وتذكر الموت يقطع الأماني الكاذبة ، ويهدم اللذات الفانية، ويدعو إلى البحث والاكتشاف والعمل والاختراع والإبداع ؛ لأن الله يحب ذلك ، والمؤمن يحب ما يحبه الله ، ويحب أن تحضره الوفاة وهو على عمل نافع يقبله الله ؛ حتى وإن لم يبق في عمره سوى لحظة واحدة ، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)[١٠٧] ، فهو يستغل كل ثانية في عمل مثمر ينفعه في دنياه أو آخرته.

(٥) اجتناب المعاصي والمبادرة بالتوبة :

المعاصي لذات وشهوات مقيتة ، تجلب غضب الرب وسخطه في الدنيا والآخرة ، وتذكر الموت يهدم هذه اللذات التي استولت على النفس ، ويملأ القلب خوفًا وفزعًا من فظاعة العذاب في القبر وفي الآخرة .

والإنسان لا يعلم متى يأتيه الموت ، فتذكره دائمًا يحمل على حفظ الجوارح عن ارتكاب الآثام ، والتباعد الدائم عن أسباب اقترافها ، وإن ألمّ بشيء منها بادر إلى التوبة النصوح قبل فوات وقتها بمجيء مقدمات الموت ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** (١٧) **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٧ ، ١٨] ، ويقول النبي ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)[١٠٨] ، فتذكر الموت يحمل على المسارعة والبدار إلى التوبة من قريب فور اقتراف الذنب ؛ لأنها لا تنفع ولا تُقبل إذا احتضر المذنب وغرغر وبلغت روحه الحلقوم ، فلذلك « بادر الخائفون بالتوبة قبل أن يسبقهم الموت إلى أرواحهم ، فيحال بينهم وبين التوبة والإنابة إلى ربهم ، ويندموا ندمًا لا يقبل ولا تُقال عثراتُهم »[١٠٩].

ولا شك أن امتناع الإنسان عن المعاصي بسبب تذكر الموت دليل كبير على إيجابيته ؛ لأن المعاصي هي سبب المصائب والشقاء في الدنيا والآخرة ، يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠] ، وبالتوبة والاستقامة تُرفع البلايا والمصائب.

ثانيًا: فوائد تذكر الموت للمجتمع :

إن الذي يديم تذكر الموت لا ينعزل عن الناس ؛ بل يحسن إليهم ، ويجتهد في إصلاح المجتمع ؛ ويمكن إجمال هذه الفوائد في النقاط الآتية:

أ- الإحسان إلى الخلق :

تذكر الموت يلزم العبد الانكسار والتواضع والخوف من الله تعالى والطمع في رحمته ؛ فيزداد رحمة بالضعفاء والمساكين واليتامى والأرامل، ويحسن إليهم ، ويتصدق عليهم ، ويسعى في الحفاظ على حقوقهم ؛ رجاء أن تناله رحمة الله تعالى ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[١١٠].

والذي يكون الموت على ذكرٍ دائمٍ منه لا يأمن أن يباغته من غير استعداد فيترك أبناءه صغارًا ضعفاء لا يجدون من يعطف عليهم ، فيحسن إلى أبناء غيره من اليتامى والمساكين كما يحب أن يحسن الناس إلى أبنائه إن مات وتركهم ، يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ٩، ١٠].

واليقين بالنهاية المحتومة وهي الموت تجعل المرء على حذر ووجل من خاتمة الشقاء والميتة السيئة ، فيحرص على أن يختم حياته ختامًا حسنًا ، وقد بيّن النبي ﷺ أن التصدق على الفقراء والمساكين ، وإغاثة الملهوفين ، وفعل المعروف للناس ؛ يدفع ميتة السوء ، فقال: (صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ)[١١١].

ب- ترك الظلم ومجابهة الظالمين :

الظلم هو مجاوزة الحد في الطغيان ، فيعدو الإنسان طوره ، ويعتدي على الضعفاء بقوته أو نفوذه أو أتباعه أو جنوده.

وتذكر الموت يكسر النفس ويكبح سطوتها ، فيمنعها عن مجاوزة الحد في الطغيان ، وسكراته وغمراته وما يقارنها من عذاب خاص للظالمين يصيب الإنسان برهبة وفزع يمنعه عن الظلم ويحجزه عنه ؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وإذا لم يتعظ الظالم بالموت ؛ فيجب على المصلحين وعظه ومجابهته والإنكار عليه ، ولا يخشون بطشه أو قتله ؛ لأن من يُقتل في مثل هذا الموقف فهو شهيد مثل شهيد المعركة المقتول في سبيل الله ؛ بل اعتبره الرسول ﷺ من خير الشهداء فقال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)[١١٢].

ولا يخفى ما في تذكر الموت من متنفس كبير للمظلومين المقهورين الذين لا يجدون لهم ناصرًا إلا الله جل جلاله ، والذين ينتظرون مباغتة الموت لهؤلاء الظالمين فيغمرهم بهوله ؛ فيشفي صدورهم وينتصر لهم.

وإذا لم يحدث الانتصار لهم في الدنيا ؛ فبعد الموت يكون القصاص فينتصر الله تعالى للمظلوم من الظالم ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ ، وَصِيَامٍ ، وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ

حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)[١١٣].

ج- الإصلاح ومحاربة الفساد :

الفساد نتاج تلقائي للكفر والفسوق والعلو في الأرض ، والمفسدون أناس ذوو نفوس أمارة بالسوء ، وإذا تُركوا من غير مواجهة ومجاهدة ازدادوا فسادًا وعتوًا وعلوًا في الأرض ، يقول الله تبارك وتعالى عن المفسدين عبر التاريخ :

- ﴿ **وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر: ١٠ - ١٤].
- ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [المائدة: ٦٤].
- ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

والإصلاح ثمرة طيبة تخرج من دوحة الإيمان اليافعة ، والمصلحون أناس ذوو نفوس مطمئنة ترغب في الخير وتدعو إليه وترغب الناس فيه ، وإذا تُركوا ونفوسهم الطيبة ازدادوا صلاحًا وإصلاحًا ، يدعون إلى الخير

والإيمان ، وينهون عن المنكر والكفر والفساد في الأرض ، يقول الله تعالى عنهم: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ، ويقول سبحانه: ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

وإن أعظم وصف لهؤلاء المصلحين أنهم لا يخشون في الله لومة لائم ، ويبذلون في ذات الله تعالى وفي سبيل مرضاته الغالي والنفيس ، وإذا لم يكن سبيل إلى الإصلاح إلا بالموت فهم لا يهابونه ؛ بل هو أحب شيء إلى نفوسهم ، ولهذا جزاؤهم من جنس عملهم يكافئهم الله عز وجل على بذلهم مهجهم وتضحيتهم بحياتهم الدنيا حياة أعظم وأكمل وأهنأ في الجنة ، يقول الله تعالى عنهم: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] ، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

ولذلك نجد هؤلاء المصلحين هم وحدهم الذين يغيرون وجه التاريخ بجهادهم وكفاحهم ؛ لأن شعارهم أنهم يحبون الموت في سبيل الله كما يحب الملوك زخرف الحياة الدنيا ، هؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا

﴿ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأبرز أنموذج في التاريخ لهؤلاء المصلحين أصحاب محمد ﷺ الذين حوّلوا وجه الأرض من بؤس الكفر ، وعفونة الفساد ، وظلمات الجهل ، وطغيان الظلم ؛ إلى بشاشة الإيمان ، وجمال الإصلاح ، ونور الحق ، ورغادة العدل.

هؤلاء الأصحاب الكرام ﷺ لم تكن لهم وسيلة يصلحون بها في الأرض سوى بذلهم نفوسهم وأموالهم ، فكانوا يحبون الموت ويطلبون الشهادة في سبيل الله تعالى ؛ كما أرسل خالد بن الوليد ﷺ لأمراء الفرس برسالة دعاهم فيها للإسلام أو دفع الجزية ، ثم هددهم فقال: « وإلا فوالّذي لا إِلَهَ غَيْرُهُ لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ قَوْمًا يُحِبُّونَ الموت كما تحبون أنتم الحياة ، فلما قرءوا الْكِتَابَ أَخَذُوا يَتَعَجَّبُونَ »[١١٤]، ولما سأل رستم قائد الفرس ربعي بن عامر: ما جاء بكم ؟ قال له ربعي: « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله ، قال: وما موعود الله ؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي »[١١٥].

والشهداء في كل عصر ومن كل جيل هم الذين يصلحون ما فسد ، ويقيمون ما اعوج ، ويحملون على كاهلهم عبء التغيير ؛ لا يبتغون مقابل ذلك جزاءً ولا شكورًا ، ففضلهم على الناس كبير ، وأثرهم في الكون باقٍ إلى يوم الدين ، وجزاؤهم عند الله تعالى ليس له نظير ، يقول سبحانه: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩].

ومن يكره الموت أو يهابه لا يمكنه الإصلاح أبدًا مهما كان معه من القوة والمال ، والجنود والأتباع ، والعدة والعتاد ؛ لأن التعلق بزخارف الدنيا والالتصاق بالأرض يثبطه ويضعفه ، فيخشى مواجهة الظالمين المفسدين حتى لا يهلك فتفوته الدنيا ، أو يصاب في جسده أو ماله فيخسر قدرًا من حطامها ، ولذلك عاتب الله عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ** ﴾ [التوبة: ٣٨].

وشخّص الرسول ﷺ المرض العضال الذي يعاني منه المسلمون في هذا الزمان فقال: (يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)[١١٦].

فحب الدنيا وكراهية الموت هو الداء الذي أصاب المسلمين في العصر الحديث فثبطهم وأضعفهم وأذلهم ، وأذهب الهيبة من صدور أعدائهم ؛ رغم كثرة عددهم ، وتعدد مواردهم ، واتساع بلدانهم.

ولن ترجع للأمة الإسلامية عزتها ، وتستعيد مجدها وريادتها للأمم مرة أخرى ؛ إلا ببذل النفوس والمهج في سبيل الله رغبة في التغيير والإصلاح؛ حينما يصبح الموت أحب إلى المسلمين من الحياة – حينئذٍ فقط – تستقيم أمورهم ، وتنصلح أحوالهم ، وتتبدل حياتهم الذليلة إلى حياة عزيزة مجيدة ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

الخاتمة

بعد أن انتهيتُ - بفضل الله تعالى وإعانته - من عرض موضوعات البحث وقضاياه ؛ أرى أنه من الأهمية بمكان التنبيه على أهم نتائجه .. وذلك من خلال النقاط الآتية :

أولاً: الموت في القرآن الكريم والسنة المشرفة يتصف بالإيجابية وليس السلبية والعدمية ، فهو مخلوق من مخلوقات الله ، يرتبط بالحياة ليؤديا وظيفة واحدة هي الاختبار والابتلاء للإنسان ، والحكمة الجامعة من خلق الموت هي : (تذكر الموت سبب للاستقامة في الدنيا، والسعادة في الآخرة).

ثانيًا: والموت قسمان لكل قسمٍ مظاهره ومراحله التي لها أثر كبير في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية ؛ فالموتة الأولى تشتمل على عناصر تكوين الإنسان الأولية من تراب ونطفة وعلقة ومضغة قبل أن يُنفخ فيه الروح وتدب فيه الحياة ، وهي مرحلة عجيبة وبديعة تنم عن قدرة الله الباهرة ، والموتة الثانية تنهي حياته الدنيا بطريقة عجيبة وبديعة كذلك ؛ إذ تخرج روحه من كل جزء وعضو من أعضاء الجسد ، وفيها يشاهد الإنسان أولى مراحل الآخرة وهو في الدنيا ، وفي ذلك دليل ظاهر على قدرة الله القاهرة الباهرة ؛ إذ لا يسلب الحياة إلا الله كما أنه لا يمنحها سواه سبحانه ، فالإماتة والإحياء من خصائص الربوبية وبرهان عليها.

ثالثًا: الموت حتم لازم لجميع الأحياء على وجه الأرض ، وفي ذلك قمة الإيجابية ؛ لأنه إعلان منشور لكل إنسان يقرأ فيه مصيره المحتوم الذي يُلزمه – لو كان يعتبر – بالعبودية والتواضع والانكسار للحي القيوم الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون.

رابعًا: كل مظاهر الظلم والفساد ، وجميع أسباب الجرائم والمعاصي ؛ إنما هي شهوات ولذات محرمة ، وتذكر الموت يهدم هذه اللذات التي تعاظمت وتضخمت في نفس الإنسان ، ويهذمها ويقطعها عن قلبه الذي تعلق بها.

خامسًا: لتذكر الموت فوائد عظيمة للفرد والمجتمع ؛ أهمها : تحقيق التوحيد بإخلاص العبادة لله تعالى ، وتزكية النفس وتطهيرها من الآفات

والشهوات المحرمة ، وقصر الأمل والقناعة والزهد في الدنيا ، والإحسان والإتقان في العمل ، واجتناب المعاصي والمبادرة بالتوبة منها ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين والرحمة بالضعفاء واليتامى والأرامل ، وترك الظلم ومجابهة الظالمين ، والإصلاح ومحاربة الفساد.

سادسًا: المصلحون والشهداء في كل عصر ومن كل جيل هم الذين يصلحون ما فسد ، ويقيمون ما اعوج ، ويحملون على كاهلهم عبء الإصلاح ؛ شعارهم حب الموت في سبيل الله رغبة في نشر الخير ومنع الفساد في الأرض ، ففضلهم على الناس كبير ، وأثرهم في الكون باقٍ إلى يوم الدين.

ومَن يكره الموت أو يهابه لا يمكنه الإصلاح أبدًا مهما كان معه من القوة والمال ، والجنود والأتباع ؛ لأن التعلق بزخارف الدنيا والالتصاق بالأرض يثبطه ويضعفه ، ولن ترجع للأمة الإسلامية عزتها ، وتستعيد مجدها وريادتها للأمم مرة أخرى ؛ إلا ببذل النفوس والمهج في سبيل الله تبارك وتعالى.

وأخيرًا .. أوصي الأساتذة الأكارم والباحثين الأفاضل أن يكرّسوا جهودهم العلمية في توظيف المعتقدات والمباحث الإيمانية توظيفًا عمليًا ؛ بعرضها عرضًا مثمرًا يبرز فوائدها وآثارها على الفرد والمجتمع في العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك ؛ بدلاً من عرضها عرضًا نظريًا تقليديًا لا يُجنى منه ثمرة عملية ، ولا يكون له أثر في التغيير والإصلاح.

وختامًا .. أرجو أن يكون هذا البحث قد أتى بجديد ، وفتح أبوابًا لخدمة العلوم الإسلامية ، وإثرائها بمزيدٍ من الدراسات النافعة المثمرة.

هذا .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

* أحكام الجنائز وبدعها، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط٤، ١٤٠٦هـ؛ ١٩٨٦م.
* إحياء علوم الدين، تأليف أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ.
* الأدب المفرد، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، تحقيق عادل سعد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥ه؛ ٢٠٠٤م.
* الإشارات والتنبيهات، تأليف أبي علي حسين بن عبد الله بن سينا ، شرح نصير الدين الطوسي، وحاشية قطب الدين الرازي، نشر البلاغة، المطبعة: القدس – قم، ط١، ١٣٧٥هـ.
* البداية والنهاية، تأليف أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.
* بين الكتب والناس، تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد، دار المعارف، ط٤، سنة ١٩٨٥م.
* تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ؛ ١٩٨٨م.
* التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق د. محمد تامر، المكتب الثقافي، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ؛ ٢٠٠٣م.
* تفسير البغوي (المسمى معالم التنزيل)، تأليف أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦ه) تحقيق خالد عبد الرحمن ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط٥، ١٤٢٣ه؛ ٢٠٠٢م.
* تفسير القرآن العظيم، تأليف أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط سنة ١٤٠٠ه؛ ١٩٨٠م.
* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، تأليف أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ)، طبعة خاصة بتصريح من دار الشعب، توزيع دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.
* تهذيب سنن أبي داود، تأليف محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم (٧٥١ه)، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، توزيع مكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون تاريخ.

* الرسالة القشيرية في علم التصوف، تأليف أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (٤٦٥ه)، تحقيق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.
* الرعاية لحقوق الله، تأليف أبي عبد الله الحارث المحاسبي (٢٤٣ه)، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.
* الروح، تأليف محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم (٧٥١ه)، دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى الحلبي)، القاهرة، بدون تاريخ.
* زاد المسير في علم التفسير، تأليف أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (٥٩٧هـ)، حققه د. محمد بن عبد الرحمن، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧ه؛ ١٩٨٧م.
* سلسلة الأحاديث الصحيحة، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي (المجلد الأول والثاني)، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ؛ ١٩٨٥م - وطبعة ثانية: مكتبة المعارف (الأجزاء ٣، ٥، ٦)، الرياض، ط٢، ١٤٠٧هـ؛١٩٨٧م – وطبعة ثالثة: المكتبة الإسلامية بالأردن والدار السلفية بالكويت (المجلد الرابع)، ط٢، ١٤٠٤هـ.
* سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه (٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية (عيسى الحلبي)، القاهرة، بدون تاريخ.
* سنن أبي داود، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، دار ابن حزم بيروت، (الطبعة الأولى في مجلد واحد كبير)، ١٤١٩هـ؛ ١٩٩٨.
* سنن الترمذي(المسمى الجامع الصحيح)، للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ؛ ١٩٨٣.
* سنن النسائي (نسخة غير مرقمة بشرح السيوطي وحاشية السندي)، للحافظ أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
* شرح الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤٧٨ هـ)، شرح أبي بكر بن ميمون، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ؛ ١٩٨٧م.

* شرح العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي (٣٢١هـ)، وشارحه القاضي علي بن أبي العز الحنفي (٧٩٢هـ)، راجعه وخرج أحاديثه شريف عبد الله ومحمد سعيد، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
* شعب الإيمان، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ؛١٩٩٠.
* صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، تحقيق محب الدين الخطيب، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢،١٤٠٠هـ.
* صحيح الجامع الصغير للسيوطي، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط٢، ١٤٠٦هـ؛ ١٩٨٦م.
* صحيح مسلم (بشرح النووي)، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ)، خرج أحاديثه محمد عبد العظيم، دار التقوى، المنصورة بمصر، ط١، ٢٠٠٤م.
* القاموس المحيط، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ؛ ١٩٩٧م.
* القيامة الصغرى، تأليف الدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٣، ١٤٢٣ه؛ ٢٠٠٤م.
* كتاب الأربعين في أصول الدين (وهو جزء من كتاب جواهر القرآن طبع مستقلاً) ، تأليف أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ.
* كشاف اصطلاحات الفنون، تأليف محمد علي التهانوي الحنفي (١١٥٨هـ)، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ؛ ١٩٩٨م.
* الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، ضبطه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ه؛ ١٩٩٥م.
* لسان العرب، تأليف أبي الفضل محمد بن مكرَّم بن منظور المصري (٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، (مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٠هـ).
* لغز الموت، تأليف الدكتور مصطفى محمود، دار العودة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

* مختار الصحاح، تأليف محمد بن أبي بكر الرازي، دراسة وتقديم د. عبد الفتاح البركاوي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١١ه.
* مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، تأليف الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
* المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، (نسخة غير مرقمة، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي)، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
* مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، دار الفكر العربي، بيروت، (نسخة غير مرقمة مصورة عن طبعة أحمد الحلبي سنة ١٣١٣هـ).
* المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ)، تحقيق محمد حسن الشافعي، دار الفكر، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ؛ ١٩٩٩م.
* المعجم الفلسفي، تأليف الدكتور جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب ودار الكتاب العالمي وغيرهما، بيروت، ط سنة ١٤١٤هـ؛ ١٩٩٤م.
* المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، دار البيان العربي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٥هـ؛ ١٩٨٥م.
* المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٣، بدون تاريخ.
* مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير)، تأليف فخر الدين محمد بن عمر الرازي الأشعري (٦٠٦هـ)، دار الغد العربي، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ؛ ١٩٩٢م.
* مفردات ألفاظ القرآن، تأليف الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهاني، تحقيق أبي عبدالله مصطفى العدوي، مكتبة فياض، المنصورة بمصر، ط١، ١٤٣٠ه؛ ٢٠٠٩م.
* منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة في الجامعة، تأليف الدكتور أبو الوفا التفتازاني، بحث ضمن أبحاث في الفكر الفلسفي، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سنة ١٣٩٧ه.

الهوامش والإحالات :

(١) انظر: بين الكتب والناس للعقاد : ص ١١-٢٣، مدخل نقدي لدراسة الفلسفة للدكتور محمد الشرقاوي : ص ٢٢٠-٢٢٣، منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوربية للدكتور أبو الوفا التفتازاني : ص ٧٢-٧٤.

(٢) انظر: الإشارات والتنبيهات لابن سينا وشارحيه الطوسي والرازي : ٣/٢٦٤-٢٦٥ ، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي : ٤/١٠٦-١٠٧.
(٣) انظر على سبيل المثال : شرح العقيدة الطحاوية : ص ٥٦ ، مفاتيح الغيب للرازي : ١٥/٦٠٦.
(٤) انظر: لغز الموت للدكتور مصطفى محمود : ص ٥-٧.
(٥) مختار الصحاح : (م و ت) ص ٢٩٠ ، وانظر: لسان العرب لابن منظور : (باب التاء . فصل الميم) ٢/٩٠.
(٦) القاموس المحيط : (باب التاء . فصل الميم) ١/٢٥٨.
(٧) المعجم الوسيط : (مات) ٢/٩٢٦.
(٨) لسان العرب لابن منظور : (باب التاء . فصل الميم) ٢/٩٠.
(٩) القاموس المحيط : (باب التاء . فصل الميم) ١/٢٥٩.
(١٠) مختار الصحاح : (م و ت) ص ٢٩٠.
(١١) المعجم الوسيط : (مات) ٢/٩٢٦.
(١٢)انظر: القاموس المحيط : (باب التاء . فصل الميم) ١/٢٥٨، لسان العرب لابن منظور : (باب التاء . فصل الميم) ٢/٩٠-٩٤ ، مختار الصحاح : (م و ت) ص ٢٩٠، المعجم الوسيط : (مات) ٢/٩٢٦.
(١٣) القيامة الصغرى للدكتور عمر الأشقر : ص١٧ ، وانظر: شرح الإرشاد لابن ميمون : ص٦١٧ ، كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي (وهو جزء من كتاب جواهر القرآن له طبع منفصلاً عنه) : ص١٧٩.
(١٤) التذكرة في أحوال الموتى للقرطبي : ص٦ ، وانظر: كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي : ص١٧٩.
(١٥) انظر: التذكرة للقرطبي : ص٦.
(١٦) كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي : ص١٨٠.
(١٧) الروح لابن القيم : ص٤٦ ، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي : ص٣٤٢ ، وقارن ذلك بما في : الإشارات والتنبيهات لابن سينا وشارحيه الطوسي والرازي : ٣/٢٦٤-٢٦٥ ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي : ٤/١٠٦-١٠٧.
(١٨) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : (موت) ص٦٠٣.
(١٩) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤/٥٢ ، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي : ٢/٦٦.
(٢٠) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص٦٠٣.
(٢١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/١٣٨.
(٢٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص٦٠٤.
(٢٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/٦.
(٢٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص٦٠٣.

(٢٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري : ٦٠/٢ ، انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٧٢/٢.
(٢٦) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص٦٠٣.
(٢٧) زاد المسير لابن الجوزي : ٢٥٩/٤ ، وانظر: الكشاف للزمخشري : ٥٢٥/٢ ، تفسير القرطبي : ٣٥٨١/٦ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٢٦/٢ – ٥٢٧.
(٢٨) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص٦٠٣.
(٢٩) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٢٢/٤.
(٣٠) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص٦٨٤.
(٣١) انظر الاستشهاد بهذه الآيات في مفردات ألفاظ القرآن : ص٦٨٤.
(٣٢) الكشاف للزمخشري : ٣٦٠/١.
(٣٣) مفاتيح الغيب للرازي : ٢٤٠/٤.
(٣٤) الكشاف للزمخشري : ٣٦٠/١.
(٣٥) مفاتيح الغيب للرازي : ٢٤١/٤.
(٣٦) انظر: الأقوال المذكورة وغيرها في : تفسير البغوي : ٣٠٨/١ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٦٦/١ ، تفسير القرطبي : ١٣٤٢/٣ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٣٣٧/١ ، الكشاف للزمخشري : ٣٦٠/١ ، مفاتيح الغيب للرازي : ٢٣٩/٤ – ٢٤١.
(٣٧) انظر: القاموس المحيط : (باب الياء . فصل الفاء) ١٧٣٢/٢ ، مختار الصحاح : (ف ن ي) ص ٢٣٩.
(٣٨) تفسير القرآن العظيم : ٢٧٢/٤ ، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي : ١٨٢/١٥.
(٣٩) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص ٦٥٥.
(٤٠) السابق.
(٤١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤٠٣/٣ ، زاد المسير لابن الجوزي : ١١٨/٦.
(٤٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص ٦٥٥.
(٤٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب : ص ٥١٦.
(٤٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١٣٥/٤ ، زاد المسير لابن الجوزي : ١٠٦/٧.
(٤٥) الكشاف للزمخشري : ٥٩١/٤ ، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤١٦/٤.
(٤٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب : ص ٤٩٨.
(٤٧) تفسير البغوي : ٢٣٧/٢ ، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢٩٥/٢ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٢٢٦/٣ – ٢٢٧.
(٤٨) انظر: ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني : ص ١٦٢.
(٤٩) انظر: تفسير القرطبي : ١٤٧٧/٣ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٣٩/٢.
(٥٠) انظر الحديث في : صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني – كتاب الجنائز – باب التعوذ من عذاب القبر – رقم ١٣٧٧ – ٢٨٤/٣ ، صحيح مسلم بشرح

النووي واللفظ له – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب ما يستعاذ منه في الصلاة – رقم ٥٨٨ – ٨٣٥/٥.

(٥١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٥٦ ، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٩٦/٤ ، وقد حكى الرازي ذلك عن أصحابه الأشاعرة في تفسير سورة الملك ؛ انظر مفاتيح الغيب : ٦٠٦/١٥ ، وقارن ذلك بما في : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي : (باب الميم . فصل التاء) ١٠٦/٤ – ١٠٧ ، والمعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا : (الموت) ٤٤٠/٢.

(٥٢) تفسير البغوي : ٣٦٩/٤ ، وانظر: تفسير القرطبي : ٦٦٨٥/١٠ ، مفاتيح الغيب للرازي : ٦٠٦/١٥.

(٥٣) انظر الحديث في : صحيح البخاري بشرح فتح الباري – كتاب بدء الخلق – باب ذكر الملائكة – رقم ٣٢٠٨ – ٣٥٠/٦ ، صحيح مسلم بشرح النووي واللفظ له – كتاب القدر – باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه – رقم ٢٦٤٣ – ٣٠٧٧/١٦.

(٥٤) سيأتي الحديث عن الحكمة من خلق الموت بشيء من التفصيل في المبحث الثالث – إن شاء الله.

(٥٥) انظر الأثر في : تفسير البغوي : ٩٣/٤ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٦٧/١ ، وهذا التقسيم هو غالب قول المفسرين ؛ انظر: تفسير القرطبي : ١٤٧٧/٣ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٤٥/١ ، الكشاف للزمخشري : ١٥٠/٤.

(٥٦) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٣٤٧.

(٥٧) انظر الحديث في : صحيح البخاري واللفظ له – كتاب الجنائز – باب الميت يسمع خفق النعال – رقم ١٣٣٨ – ٢٤٤/٣ ، صحيح مسلم – كتاب الجنة وصفة نعيمها – باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه – رقم ٢٨٧٠ – ٣٢٦٦/١٧.

(٥٨) انظر روايات الحديث وطرقه في : سنن أبي داود – كتاب السنة – باب في المسألة في القبر وعذاب القبر – رقم ٤٧٥٣ – ص ٧٢١ ، مسند أحمد (غير مرقم) – حديث البراء بن عازب – ٢٨٧/٤ - ٢٨٨ ، المستدرك على الصحيحين (غير مرقم) للحاكم وصححه ووافقه الذهبي – كتاب الإيمان – ٣٧/١ - ٣٨ ، شعب الإيمان للبيهقي – فصل في عذاب القبر – رقم ٣٩٥ – ٣٥٥/١-٣٥٦ ، وصححه ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود ٣٣٧/٤ رقم ٣٠٨٣ ، وجمع الألباني رواياته كلها وصححه في أحكام الجنائز وبدعها – رقم ١٠٨ – ص ١٥٦ – ١٥٩.

(٥٩) انظر روايات الحديث وطرقه في : سنن الترمذي – أبواب الزهد – باب ما جاء في ذكر الموت – رقم ٢٤١٠ – ٣٧٩/٣ ، سنن ابن ماجه – كتاب الزهد – باب ذكر القبر والبلى – رقم ٤٢٦٧ - ١٤٢٦/٢ ، مسند أحمد – مسند عثمان بن عفان – ٦٣/١-٦٤ ، المستدرك للحاكم وصححه الذهبي في تعليقه عليه – كتاب الرقاق ٣٣٠/٤ ، شعب

الإيمان للبيهقي – باب في الزهد وقصر الأمل – رقم ١٠٥٥٣ – ٣٥٢/٧ ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير – حرف الألف - رقم ١٦٨٤ - ٣٤٧/١.

(٦٠) الروح لابن القيم : ص ٥٨.
(٦١) انظر: السابق : ص ٥٧.
(٦٢) انظر: تفسير البغوي : ٢٤٢/١ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٢٦٩/١ ، قال الرازي : « فقوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ** ...﴾ ليس دليلاً آخر بل تمام الدليل الأول ...» ؛ انظر: مفاتيح الغيب : ٥٦٣/٣.
(٦٣) تفسير القرآن العظيم : ٣١٣/١ ، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي : ٥٦٣/٣.
(٦٤) انظر: تفسير البغوي : ٣٠٣/١ ، تفسير القرطبي : ١٣٣٥/٣ – ١٣٣٦.
(٦٥) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١١٢/١ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٨٦/١ – ٨٧ ، ٢٧٢ – ٢٧٤ ، مفاتيح الغيب للرازي : ٥٨٧/٣ – ٥٨٨.
(٦٦) انظر الحديث عن ابن عباس ﷺ في : صحيح البخاري – كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى: « وهو العزيز الحكيم » - رقم ٧٣٨٣ – ٣٨١/١٣ ، صحيح مسلم واللفظ له– كتاب الذكر والدعاء والتوبة – باب التعوذ من شر ما عمل – رقم ٢٧١٧ – ٣١٤٤/١٧.
(٦٧) انظر الحديث في : صحيح البخاري – كتاب التفسير – باب « إن الله عنده علم الساعة ...» - رقم ٤٧٧٨ – ٣٧٣/٨ ، مسند أحمد – مسند عبد الله بن عمر ﷺ – ٢٤/٢.
(٦٨) انظر: القيامة الصغرى للدكتور عمر الأشقر : ص ١٨ – ٢٠.
(٦٩) انظر الحديث في : سنن الترمذي وقال: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ » - أبواب الجهاد – باب (٢٥)- رقم ١٧١٩ – ١٠٩/٣ ، سنن النسائي (غير مرقم) – كتاب الجهاد – باب ما يجد الشهيد من الألم – ٣٦/٦ ، سنن ابن ماجه – كتاب الجهاد – باب فضل الشهادة في سبيل الله - رقم ٢٨٠٢ - ٩٣٧/٢ ، مسند أحمد – مسند أبي هريرة ﷺ - ٢٩٧/٢ ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - رقم ٩٦٠ - ٦٨٦/٢ ، وصحيح الجامع الصغير – حرف الميم – رقم ٥٨١٣ – ١٠١٢/٢.
(٧٠) انظر: الروح لابن القيم : ص ١٣٢.
(٧١) انظر الحديث في : صحيح مسلم واللفظ له – كتاب الإمارة – بَاب بَيَانِ أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ – رقم ١٨٨٧ - ٢٣٦٣/١٣ ، سنن الترمذي – أبواب تفسير القرآن – من سورة آل عمران – رقم ٤٠٩٨ – ٢٩٨/٤ – ٢٩٩.

(٧٢) انظر: تفسير البغوي : ٢٢٣/٤ ، القيامة الصغرى للأشقر : ص ٢٦.
(٧٣) إحياء علوم الدين للغزالي : ٤٦١/٤ ، وانظر: الرعاية لحقوق الله للمحاسبي : ص ١١٦.
(٧٤) انظر الحديث في : صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها – كتاب الرقاق – باب سكرات الموت – رقم ٦٥١٠ – ٣٦٩/١١.

(٧٥) إحياء علوم الدين للغزالي : ٤٧٦/٤ ، تفسير القرطبي : ٦١٨٢/٩ – ٦١٨٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢٢٤/٤.

(٧٦) وعاء تصان فيه الثياب ، والمقصود : كأنه في مكان ضيق مثل وعاء الملابس ، انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي : (باب التاء . فصل التاء) ٢٤٣/١.

(٧٧) التذكرة للقرطبي : ص ٢٢ ، والوُعُول جمع وَعْل وهو: تَيْس الجبل ، والمقصود : أرعى الشاء في الجبال والصحاري ، انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي : (باب اللام . فصل الواو) ١٤١٠/٢.

(٧٨) وإنما تخفف سكرات الموت عن الشهيد الذي يُقتل في المعركة فتكون كألم القرصة فقط ، كما سلف الحديث عن ذلك في الحقيقة السابقة.

(٧٩) انظر: تفسير البغوي : ١١٦/٢ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١٥٧/٢ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٦٠/٣ ، القيامة الصغرى للأشقر : ص ٢٧.

(٨٠) انظر الحديث في: صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه – رقم ٦٥٠٧ – ٣٦٤/١١ ، صحيح مسلم واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها – كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه - رقم ٢٦٨٤ – ٣١٢٢/١٧.

(٨١) الحَنوط : كل طيب يُخلط للميت ، انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي : (باب الطاء . فصل الحاء) ٨٩٦/١.

(٨٢) المُسُوح : جمع المِسْح وهو: ثوب من الشعر غليظ يُسمى البِلاس، انظر: مختار الصحاح : (م س ح) ص ٢٨٤.

(٨٣) السَّفُّود : الحديدة التي يُشوى بها اللحم ، والمقصود بيان شدة النزع ، انظر: مختار الصحاح : (س ف د) ص ١٥٠.

(٨٤) انظر روايات الحديث وطرقه في : سنن أبي داود – كتاب السنة – باب في المسألة في القبر وعذاب القبر – رقم ٤٧٥٣ – ص ٧٢١ ، مسند أحمد (غير مرقم) – حديث البراء بن عازب – ٢٨٧/٤ - ٢٨٨ ، المستدرك على الصحيحين (غير مرقم) للحاكم وصححه ووافقه الذهبي – كتاب الإيمان – ٣٧/١ - ٣٨ ، شعب الإيمان للبيهقي – فصل في عذاب القبر – رقم ٣٩٥ – ٣٥٥/١-٣٥٦ ، وصححه ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود ٣٣٧/٤ رقم ٣٠٨٣ ، وجمع الألباني رواياته كلها وصححه في أحكام الجنائز وبدعها – رقم ١٠٨ – ص ١٥٦ – ١٥٩.

(٨٥) انظر معنى ذلك في : تفسير القرطبي : ٦٦٨٥/١٠ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٩٦/٤.

(٨٦) انظر معنى ذلك في : مفاتيح الغيب للرازي : ٦٠٨/١٥.

(٨٧) انظر: تفسير البغوي : ٣٦٩/٤ ، تفسير القرطبي : ٦٦٨٦/١٠ ، مفاتيح الغيب للرازي : ٦٠٨/١٥.

(٨٨) انظر هذه الأقوال في : تفسير البغوي : ٣٦٩/٤ ، تفسير القرطبي : ٦٦٨٦/١٠ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٩٦/٤ ، الكشاف للزمخشري : ٥٦٣/٤ ، مفاتيح الغيب للرازي : ٦٠٩/١٥.

(٨٩) انظر الحديث عن بريدة ﷺ في : سنن الترمذي وقال: « حديث حسن صحيح » - أبواب الجنائز - باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور – رقم ١٠٦٠ – ٢٥٩/٢ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير – حرف القاف – رقم ٤٣٧٩ – ٨٠٨/٢.

(٩٠) انظر الحديث عن أبي هريرة ﷺ في : صحيح مسلم – كتاب الجنائز – باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه – رقم ٩٧٦ – ١١٨٦/٧.

(٩١) الكشاف للزمخشري : ٥٦٣/٤.

(٩٢) وفي رواية : (هادم) بالدال المهملة ، وقد روى هذا الحديث كل من أبي هريرة وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك ﷺ ، انظر روايات الحديث وطرقه في : سنن الترمذي وقال : «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ» – أبواب الزهد - باب ما جاء في ذكر الموت – رقم ٢٤٠٩ – ٣٧٨/٣-٣٧٩ ، سنن النسائي – كتاب الجنائز – باب كثرة ذكر الموت - ٤/٤ ، سنن ابن ماجه – كتاب الزهد – باب ذكر الموت والاستعداد له - رقم ٤٢٥٨ - ١٤٢٢/٢ ، مسند أحمد – مسند أبي هريرة ﷺ - ٢٩٣/٢ ، المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي – كتاب الرقاق –٣٢١/٤ ، شعب الإيمان للبيهقي – باب الخوف من الله – رقم ٨٢٦ – ٤٩٨/١ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير – حرف الألف - رقم ١٢١٠ - ٢٦٤/١.

(٩٣) إحياء علوم الدين للغزالي : ٤٥٠/٤.

(٩٤) السابق : ٤٦١/٤.

(٩٥) انظر: الرسالة القشيرية في علم التصوف للقشيري : ص ٣٠١.

(٩٦) انظر هذا الحديث عن أبي بن كعب ﷺ في : سنن الترمذي وقال: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ » - أبواب صفة القيامة – باب (١٤) - رقم ٢٥٧٤ - ٥٣/٤ ، ومسند أحمد – حديث الطفيل عن أبي بن كعب ﷺ - ١٣٦/٥ ، المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي – كتاب التفسير - تفسير سورة الأحزاب - ٤٢١/٢ ، شعب الإيمان للبيهقي- باب في محبة الله عز وجل – فصل في إدامة ذكر الله عز وجل – رقم ٥١٧ – ٣٩٤/١ ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير – حرف الياء - رقم ٧٨٦٣ - ١٢٩٨/٢.

(٩٧) انظر: الرعاية لحقوق الله للمحاسبي : ص ١٢٩.

(٩٨) إحياء علوم الدين : ٣٥٩/٣ .

(٩٩) انظر: الرعاية لحقوق الله للمحاسبي : ص ٣٩١.

(١٠٠) إحياء علوم الدين : ٤٥٠/٤.

(١٠١) انظر هذا الحديث في : صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل – رقم ٦٤١٦ – ٢٣٧/١١ ، سنن الترمذي – أبواب الزهد – باب ما جاء في قصر الأمل – رقم ٢٤٣٥ – ٣٨٨/٣.

(١٠٢) انظر الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في : صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب في الكفاف والقناعة – رقم ١٠٥٤ – ١٢٦٦/٧ ، مسند أحمد – مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما – ١٦٨/٢.

(١٠٣) التذكرة للقرطبي : ص ١٢.

(١٠٤) انظر روايات الحديث وطرقه في : سنن ابن ماجه – كتاب الزهد - باب الحكمة - رقم ٤١٧١ - ١٣٩٦/٢ ، مسند أحمد – حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ - ٥ /٤١٢ ، المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي – كتاب الرقاق - ٣٢٦/٤ ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - رقم ٤٠١ - ٦٨٧/١ ، وصحيح الجامع الصغير – حرف الألف – رقم ٧٤٢ - ١٩٠/١.

(١٠٥) انظر روايات الحديث وطرقه عن عائشة رضي الله عنها وغيرها في : المعجم الكبير للطبراني - رقم ٧٧٦ - ٣٠٦/٢٤-٣٠٧ ، المعجم الأوسط للطبراني أيضًا - رقم ٨٩٧ - ٢٦٠/١ ، شعب الإيمان للبيهقي – باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها – رقم ٥٣١٤ – ٣٣٤/٤ ، وحسنه الألباني بشواهده في سلسلة الأحاديث الصحيحة - رقم ١١١٣ - ١٠٦/٣–١٠٧ ، وصحيح الجامع الصغير – حرف الألف – رقم ١٨٨٠ – ٣٨٣/١.

(١٠٦) انظر رويات الحديث عن شداد بن أوس ﷺ في : صحيح مسلم – كتاب الصيد والذبائح – باب الأمر بإحسان الذبح – رقم ١٩٥٥ – ٢٤٢٦/١٣ ، سنن الترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح» – أبواب الديات – باب ما جاء في النهي عن المثلة – رقم ١٤٣٠ – ٤٣١/٢.

(١٠٧) انظر الحديث عن أنس بن مالك ﷺ في : مسند أحمد – مسند أنس بن مالك – ١٩١/٣ ، الأدب المفرد للبخاري – باب اصطناع المال – رقم ٤٨٤ – ص ١٠٨ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - رقم ٩ - ١١/١ ، وصحيح الجامع الصغير – حرف الألف – رقم ١٤٢٤ – ٣٠٠/١.

(١٠٨) انظر الحديث عن عبد الله بن عمرﷺ في : سنن الترمذي وقال: «هذا حديث حسن غريب» – أبواب الدعوات – باب (١٠٣) – رقم ٣٦٠٣ – ٢٠٦/٥-٢٠٧ ، سنن ابن ماجه – كتاب الزهد – باب ذكر التوبة – رقم ٤٢٥٣ – ١٤٢٠/٢ ، مسند أحمد – مسند عبد الله بن عمر ﷺ – ١٣٢/٢ ، المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي – كتاب التوبة والإنابة – ٢٥٧/٤ ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير – حرف الألف – رقم ١٩٠٣ - ٣٨٦/١.

(١٠٩) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي : ص ١١٣.

(١١٠) انظر الحديث في : سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في الرحمة – رقم ٤٩٤١ – ص ٧٤٧ ، سنن الترمذي وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» - أبواب البر والصلة – باب ما جاء في رحمة الناس – رقم ١٩٨٩ – ٢١٧/٣ ،– ٢٨٥/٤ ، مسند أحمد – مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما – ١٦٠/٢ ، المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي – كتاب البر والصلة – ١٥٩/٤ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة – رقم ٩٢٥ – ٦٣٠/٢ ، وصحيح الجامع الصغير – رقم ٣٥٢٢ – ٦٦١/١.

(١١١) انظر روايات الحديث وطرقه في : المعجم الكبير للطبراني – رقم ٨٠١٤ – ٢٦١/٨ ، المعجم الأوسط للطبراني أيضًا – رقم ٩٤٣ – ٢٧٣/١ ، شعب الإيمان للبيهقي – فصل في الاختيار في صدقة التطوع – رقم ٣٤٤٢ – ٢٤٤/٣-٢٤٥ ، وحسنه الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة – رقم ١٩٠٨ – ٥٣٥/٤ ، وصحيح الجامع الصغير – حرف الصاد – ٣٧٩٧ – ٧٠٨/٢.

(١١٢) انظر الحديث عن جابر ﷺ في : المستدرك للحاكم وصححه – كتاب معرفة الصحابة – ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب ﷺ – ١٩٥/٣ ، المعجم الأوسط للطبراني – رقم ٤٠٧٩ – ١٢٨/٣ ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة – رقم ٣٧٤ – ٦٤٨/١ ، وصحيح الجامع الصغير – حرف السين – رقم ٣٦٧٥ – ٦٨٥/١.

(١١٣) انظر الحديث في : صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الظلم – رقم ٢٥٨١ - ١٦/ ٣٠٢٩ ، سنن الترمذي وقال: « هذا حديث حسن صحيح » - أبواب صفة القيامة - باب ما جاء في شأن الحساب – رقم ٢٥٣٣ – ٣٦/٤ ، مسند أحمد – مسند أبي هريرة ﷺ - ٣٠٣/٢.

(١١٤) البداية والنهاية لابن كثير : سنة ثنتي عشرة من الهجرة – بعث خالد بن الوليد إلى العراق - ٣٨٦/٦ ، تاريخ الطبري : السنة الثانية عشرة – مسير خالد إلى العراق وصلح الحيرة – ٣٠٨/٢.

(١١٥) البداية والنهاية لابن كثير : سنة أربع عشرة من الهجرة – غزوة القادسية – ٤٤/٧ ، تاريخ الطبري : السنة الرابعة عشرة – ذكر ابتداء أمر القادسية – ٤٠١/٢.

١١٦ انظر هذا الحديث عن ثوبان ﷺ في : سنن أبي داود – كتاب الملاحم – باب في تداعي الأمم على الإسلام – رقم ٤٢٩٧ – ص ٦٤٨-٦٤٩ ، مسند أحمد – حديث ثوبان ﷺ - ٢٧٨/٥ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة – رقم ٩٥٨ – ٦٨٣/٢ ، وصحيح الجامع الصغير – حرف الياء – رقم ٨١٨٣ – ١٣٥٩/٢.